الفصل الأول

أهداف الزكاة وآثارها فى حياة الفرد

يضم هذا الفصل مبحثين:

الأول: عن أهداف الزكاة بالنسبة للمعطى، وهو الغنى الذى وجبت عليه.

والثانى: عن أهداف الزكاة بالنظر لآخذها والمنتفع بها، وهو الذى تصرف له من ذوى الحاجات. أما الذى تصرف له الزكاة ممن يحتاج إليه المسلمون كالمؤلف والغارم لإصلاح ذات البَيْن، والغازى فى سبيل الله، والعامل عليها فيندرجون تحت أهداف الزكاة بالنظر للمجتمع.

* * *

المبحث الأول

هدف الزكاة وأثرها فى المعطى

ليس هدف الإسلام من الزكاة جمع المال، ولا إغناء الخزانة فحسب، وليس هدفه منها مساعدة الضعفاء وذوى الحاجة وإقالة عثرتهم فحسب، بل هدفه الأول أن يعلو بالإنسان على المادة، ويكون سيداً لها لا عبداً، ومن هنا اهتمت أهداف الزكاة بالمعطى اهتمامها بالآخذ تماماً. وهنا تتميز فريضة الزكاة عن الضرائب الوضعية التى لا تكاد تنظر إلى المعطى إلا باعتباره مورداً أو ممولاً لخزانتها.

ولقد عبَّر القرآن الكريم عن هدف الزكاة بالنظر للأغنياء الذين تؤخذ منهم فأجمل ذلك فى كلمتين من عدة أحرف، ولكنهما تتضمنان الكثير من أسرار الزكاة وأهدافها الكبيرة، وهاتان الكلمتان هما: التطهير، والتزكية اللتان وردت بهما الآية الكريمة: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ [التوبة:١٠٣].. وهما يشملان كل تطهير وتزكية، سواء أكانا ماديين أم معنويين، لروح الغنى ونفسه، أو لماله وثروته، مما سنفصله فى الفقرات التالية:

● الزكاة تطهير من الشح:

الزكاة التى يؤديها المسلم امتثالاً لأمر الله وابتغاء مرضاته، إنما هى تطهير له من أرجاس الذنوب بعامة، ومن رجس الشح بخاصة.

ذلك الشح الذميم الذى أحضرته الأنفس وابتلى به الإنسان؛ فقد شاء الله أن يغرس فى حنايا الإنسان مجموعة من الدوافع النفسية أو الغرائز، تسوقه سوقًا إلى السعى فى الأرض وعمارتها، فكان منها حب التملك، وحب الذات، وحب البقاء، وكان من آثار هذه الغرائز أو النوازع شح الإنسان بما فى يده، وحبه الاستئثار بالخيرات والمنافع دون الناس: ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً** ﴾ [الإسراء:١٠٠].. ﴿ **وَأُحْضِرَتِ**

الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء: ١٢٨].. فكان لا بد للإنسان الراقى أو الإنسان المؤمن أن يستعلى على نوازع الأثرة والأنانية فى نفسه، وأن ينتصر على نزعة الشح ببواعث الإيمان، ولا فلاح له فى دنياه أو آخرته إلا بالانتصار على هذا الشح المقيت.

الشح آفة خطرة على الفرد وعلى المجتمع؛ إنها قد تدفع مَن اتصف بها إلى الدم فيسفكه، وإلى الشرف فيدوسه، وإلى الدين فيبيعه، وإلى الوطن فيخونه، ولذا روى عن الرسول ﷺ أنه جعله أحد المهلكات فقال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»(١) وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩]، و[التغابن: ١٦]. كررها فى القرآن مرتين، قصر فيها الفلاح على مَن وقى هذا الداء الفتاك، وخطب الرسول ﷺ فقال: «إياكم والشح؛ فإنما هلك مَن كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»(٢).

فالزكاة بهذا المعنى طهرة: أى تطهر صاحبها من خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وفرحه بإخراجه، واستبشاره بمصرفه إلى الله تعالى.

والزكاة كما تحقق معنى التطهير للنفس، تحقق معنى التحرير لها، تحريرها من ذل التعلق بالمال والخضوع له، ومن تعاسة العبودية للدينار والدرهم، فإن الإسلام يحرص على أن يكون المسلم عبداً لله وحده، متحرراً من الخضوع لأى شىء سواه، سيداً لكل ما فى هذا الكون من عناصر وأشياء.

وأى تعاسة أعظم من أن يجعل الله الإنسان فى الأرض خليفة وسيداً، فإذا هو يعبِّد نفسه لما عليها من مادة ومال؟!

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٦٣٨٧) عن عبد الله بن عمرو، وقال محققوه: إسناده صحيح، وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٨)، وابن حبان فى صحيحه كتاب الغضب (١١/٥٧٩)، والحاكم فى المستدرك كتاب الزكاة (١/٥٧٦)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦٤٨٧) عن عبد الله بن عمرو، وقال محققوه: إسناده صحيح، وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٨)، وابن أبى شيبة فى المصنف كتاب الحديث بالكراريس (٥/٣٣١)، وابن حبان فى صحيحه كتاب الغضب (١١/٥٧٩)، والطبرانى فى الأوسط (٧/٢٧)، والحاكم فى المستدرك كتاب الزكاة (١/٥٧٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقى فى الكبرى كتاب الزكاة (٤/١٨٧).

أى تعاسة أعظم من أن يصبح جمع المال هدف الإنسان، وأكبر همه، ومبلغ علمه، ومحور حياته، وقد خُلِق لرسالة أكبر، وهدف أسمى؟!

ولا غرو أن جاء النور من مشكاة النبوة يحذِّر من هذه التعاسة، التى هى من لوازم العبودية لغير الله تعالى: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»(١).

* *

● الزكاة تدريب على الإنفاق والبذل:

وكما أن الزكاة تطهير لنفس المسلم من الشح، هى أيضًا تدريب له على خُلُق البذل والإعطاء والإنفاق.

فمما لا خلاف فيه بين علماء التربية والأخلاق أن للعادة أثرها العميق فى خُلُق الإنسان وسلوكه وتوجيهه ولهذا قيل: «العادة طبيعة ثانية». ومعنى ذلك أن للعادة من القوة والسلطان ما يقرب من «الطبيعة الأولى» التى ولد عليها الإنسان.

والمسلم الذى يتعود الإنفاق، وإخراج زكاة زرعه كلما حصد، وزكاة دخله كلما ورد، وزكاة ماشيته ونقوده وقيم أعيانه التجارية كلما حال عليها الحَوْل، ويخرج زكاة فطره كل عيد من أعياد الفطر.. هذا المسلم يصبح الإعطاء والإنفاق صفة أصيلة من صفاته، وخُلُقًا عريقًا من أخلاقه.

ومن ثَمَّ كان هذا الخُلُق من أوصاف المؤمنين المتقين فى نظر القرآن. فإذا فتح الإنسان المصحف الشريف وتلا فاتحة الكتاب، ثم اتجه إلى الصفحة التالية، ليقرأ طليعة سورة البقرة، وجد فيها بيانًا لصفات المتقين، الذين ينتفعون بهَدْى الكتاب العزيز: ﴿**الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [البقرة: ١ - ٣].

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد والسير (٦٨٨٧) عن أبى هريرة، والترمذى فى الزهد (٢٣٧٥) مختصرًا، وابن ماجه فى الزهد (٤١٣٥).

وقبل ذلك لم يغفل القرآن المكي هذا الخُلُق من أخلاق المؤمنين: ففي سورة الشورى المكية: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٨].

وقد اختلف المفسرون في تحديد المراد من ذلك. فقيل: الزكاة المفروضة -ويروى هذا عن ابن عباس- لقرن الإنفاق بإقامة الصلاة. وقيل: صدقة التطوع -وروى عن الضحاك- نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها. وقيل: هو النفقة على الأهل والعيال.

وقيل: هو عام يشمل ذلك كله[1]. وهذا هو الصحيح الذي ينبغي أن تُفهم الآيات في ضوئه. فالأمر أوسع وأعم من زكاة الفريضة، أو صدقة التطوع، أو النفقة على الأهل. إنه خُلُق من أخلاق المؤمنين ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً** ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

و ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤]...

﴿ **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٧].

ومما يدل على ذلك ما جاء في القرآن المكي من أوصاف المتقين: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٥]...

---

(١) انظر القرطبي: ١/ ١٧٩.

وبعد ذلك إنَّ الذى يعتاد الإنفاق مما بيده لغيره، والبذل من ملكه مواساة لإخوانه، ومساهمة فى مصالح أمته، يبعد أشد البعد أن يعتدى على مال غيره ناهبًا أو سارقًا؛ فإنه يصعب علي مَن يعطى من ماله ابتغاء رضا الله، أن يأخذ ما ليس له، ليجلب على نفسه سخط الله.

ومن أوائل ما أُنزلَ من القرآن فى مكة سورة الليل، وفيها يقسم الله تعالى فيقول: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾ [الليل]...

تضمنت السورة الكريمة صنفين من الناس:

صنف أثنى الله عليه ويسَّره لليُسْرَى لأنه: ﴿**أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ**﴾.. فالإعطاء صفة من صفاته الأساسية بجانب التقوى والتصديق بالحسنى، وأطلق القرآن وصفه بالإعطاء، ولم يقل ماذا أعطى؟ ولا كم أعطى؟ ولا نوع ما أعطى، لأن المقصود أن نفسه نفس كريمة معطية باذلة لا لئيمة مانعة، فالنفس المعطية هى النافعة المحسنة، التى طبعها الإحسان وإعطاء الخير، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها، فهى بمنزلة العين التى ينتفع الناس بشربهم منها وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا، فهى ميسّرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسَّر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن يسَّره الله لليُسْرَى، كما كانت نفسه ميسّرة للعطاء.

وصنف مقابل لهذا ذمه الله ويسَّره للعُسْرَى؛ لأنه: ﴿**بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ**﴾.. فهذا هو الصنف الشحيح اللئيم الذى بخل بماله، وظن نفسه

مستغنيًا عن الله وعن الناس، وكذَّب بما وعد الله من حسن العاقبة للمؤمنين الصادقين. لهذا أنذره الله ﴿ **نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** ﴾.. مثل هذا الذى كذَّب بالحسنى، وتولى عن الإعطاء والتقوى.

﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾..

لقد كانت هذه السورة المبكرة من سور القرآن المكى بما اشتملت عليه من هذين النموذجين – مشيرة إلى الاتجاه الذى يسير فيه الإسلام نحو المال ونحو الأغنياء. وموضحة النموذج الخُلُقى الذى ينشده ويرضاه الله تعالى.

* * *

● تَخَلُّقٌ بأخلاق الله:

والإنسان إذا تطهر من الشح والبخل، واعتاد البذل والإنفاق، ارتقى من حضيض الشح الإنسانى: ﴿ **وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٠].. واقترب من أفق الكمالات «الربانية»، فإن من صفات الحق تبارك وتعالى إفاضة الخير والرحمة والجود والإحسان دون نفع يعود عليه تعالى. والسعى فى تحصيل هذه الصفات بقدر الطاقة البشرية تَخَلُّقٌ بأخلاق الله، وذلك منتهى كمالات الإنسانية.

قال الإمام الرازى(١): «إنَّ النفس الناطقة –يعنى تلك التى صار بها الإنسان إنسانًا– لها قوتان: نظرية وعملية: فالقوة النظرية كمالها فى التعظيم لأمر الله، والقوة العملية كمالها فى الشفقة على خلق الله، فأوجب الله الزكاة، ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال، وهو اتصافه بكونه محسنًا إلى الخلق، ساعيًا فى إيصال الخيرات إليهم، رافعًا للآفات عنهم – ولهذا السر قال عليه السلام(٢): «تخلَّقوا بأخلاق الله»(٣) اهـ.

---

(١) التفسير الكبير: ١٦ / ١٠١.

(٢) بحثت عنه فى مظانه فلم أجد له أصلاً، ولا مَن تكلم عليه.

(٣) ومما يقرب من هذا المعنى ما قاله أيضًا من أن الاستغناء عن الشيء أعظم من الاستغناء بالشيء؛ فإن =

ومن آثار هذا الخُلُق وذلك الروح الذى نماه الإسلام فى نفوس المسلمين عن طريق الزكاة، أعنى خُلُق البذل وروح البر: تلك الصدقات الجارية التى خلفها المسلمون الخيِّرون لمن بعدهم ينتفعون بها، والتى تتمثل واضحة فى نظام «الوقف الخيرى» وما ضرب فيه الواقفون المسلمون من أمثلة فريدة فى صدق عاطفة الخير، وأصالة روح البر فى حناياهم، واتساع هذه الروح لمختلف الحاجات، وشتَّى المحتاجين إلى المعونة المادية أو المعنوية، من كل الأجناس والطبقات، بل من غير بنى الإنسان فى بعض الأحيان(١).

* *

● الزكاة شكر لنعمة الله:

ومن المعلوم الذى تنادى به العقول، وتقره الفطر، وتدعو إليه الأخلاق وتحث عليه الأديان والشرائع: أن الاعتراف بالجميل، وشكر النعمة، أمر لازم.

والزكاة توقظ فى نفس معطيها معنى الشكر لله تعالى - والاعتراف بفضله عليه وإحسانه إليه، فإن لله عَزَّ وجَلَّ -كما قال الإمام الغزالى- على عبده نعمة فى نفسه وفى ماله. وما أخس مَن ينظر إلى الفقير، وقد ضُيِّق عليه الرزق وأحوج إليه. ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إعفائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العُشر أو العُشر من ماله»(٢).

ومن الإيحاءات العميقة لهذا المعنى فى أفكار المسلمين ومشاعرهم -معنى أن الزكاة مقابل النعمة- أن كل نعمة يجب أن تقابل بزكاة من الإنسان، سواء أكانت

= الاستغناء بالشىء يوجب الاحتياج إليه، إلا أنه يتوسل به إلى الاستغناء عن غيره، فأما الاستغناء عن الشىء فهو الغنى التام، ولذلك فإن الاستغناء عن الشىء صفة الحق، والاستغناء بالشىء صفة الخلق، فالله سبحانه لما أعطى بعض عبيده أموالاً كثيرة فقد رزقه الله نصيباً وافراً من باب الاستغناء بالشىء. فإذا أمره بالزكاة كان المقصود أن ينقله من درجة الاستغناء بالشىء إلى المقام الذى هو أعلى منه وأشرف منه وهو الاستغناء عن الشىء.

(١) انظر نماذج من هذا الوقف فى كتابنا «الإيمان والحياة» فصل: «الرحمة» ص ٢٩١ - ٢٩٣.

(٢) الإحياء: ١ / ١٩٣ - طبع الحلبى.

النعمة مادية أم معنوية، ولهذا شاع بين المسلمين أن يقولوا: زكٍّ عن عافيتك.. زكٍّ عن بصرك ونور عينيك.. زكٍّ عن علمك.. زكٍّ عن نجابة أولادك.. وهكذا. وهو إيحاء نبيل جميل وقد روى فى الحديث: «لكل شىء زكاة»[1].

* *

• علاج للقلب من حب الدنيا:

والزكاة من وجه آخر - تنبيه للقلب على واجبه نحو ربه ونحو الآخرة. وعلاج له من الاستغراق فى حب الدنيا، وحب المال، فإن الاستغراق فى حبه -كما قال الرازى- يذهل النفس عن حب الله، وعن التأهب للآخرة، فاقتضت حكمة الشرع تكليف مالك المال بإخراج طائفة منه من يده، ليصير ذلك الإخراج كسراً من شدة الميل إلى المال، ومنعاً من انصراف النفس بالكلية إليه، وتنبيهاً لها على أن سعادة الإنسان لا تحصل عند الاشتغال بطلب المال، وإنما تحصل بإنفاق المال فى طلب مرضاة الله تعالى. فإيجاب الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب[2].

ويوضح الرازى[3] السر فى استيلاء حب المال على القلب الإنسانى فيقول: «إن كثرة المال توجب شدة القوة وكمال القدرة؛ وتزايد المال يوجب تزايد القدرة، وتزايد القدرة يوجب تزايد الالتذاذ بتلك القدرة، وتزايد اللذات يدعو الإنسان إلى أن يسعى فى تحصيل المال الذى صار سبباً لحصول هذه اللذات المتزايدة؛ وبهذا الطريق تسير المسألة مسألة الدور: لأنه إذا بالغ فى السعى ازداد المال - وذلك يوجب ازدياد القدرة. وهو يوجب ازدياد اللذة وهو يحمل الإنسان على أن يزيد فى طلب المال - ولما صارت المسألة مسألة الدور لم يظهر لها مقطع ولا آخر، فأثبت الشرع لها مقطعاً وآخراً، وهو أنه أوجب على صاحبه صرف

---

(١) رواه ابن ماجه فى الصيام (١٧٤٥) عن أبى هريرة، وابن أبى شيبة فى الصيام (٢/٢٧٤)، وعبد بن حميد فى مسنده (١/٤٢٣)، والبيهقى فى الشعب (٢/٢٩٢)، وضعفه العراقى إسناده فى تخريج أحاديث الأحياء (٣/٤٨).

(٢) فى التفسير الكبير: ١٦/١٠١.

(٣) المرجع السابق.

طائفة من تلك الأموال إلى الإنفاق فى طلب مرضاة الله تعالى؛ ليصرف النفس عن ذلك الطريق الظلمانى الذى لا آخر له، ويتوجه إلى عالم عبودية الله وطلب رضوانه» ا هـ.

ومعنى هذا أن الله لا يحب لعبده المؤمن أن يسير فى حلقة مفرغة لا يعرف لها طرفًا تنتهى عنده: حلقة قوامها جمع المال، والحرص عليه، والانهماك فى طلبه. وإنما يحب أن يذكِّره بأن المال وسيلة لا غاية، وأن يقول له: عند هذا المكان من الحلقة قف، لتنفق وتتصدق، وتُخرج حق الله، وحق الفقير، وحق الجماعة.

إن الله أباح للمسلم جمع المال، وأباح له طيبات الدنيا. ولكنه لم يرض ذلك له مهمة وغاية فى الحياة، إنه خُلق لغاية أسمى، ولدار أبقى. إن الدنيا خُلقت له، وأما هو فخُلق للآخرة ولعبادة الله. وما الدنيا إلا طريق للآخرة، ولا بأس إن يُجَمِّل الإنسان الطريق ويمهده، ولكن لا ينسى أنه فيه سائر إلى هدف، وساع إلى غاية.

إنَّ الله يعطى المال مَن يحب ومن لا يحب، يعطيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر: ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ [الإسراء: ٢٠].

فوجود المال فى يَدَىْ الإنسان ليس دليلاً على فضله ولا خيره، إنما الفضل والخير فى بذل المال لله، وإنفاقه فى سبيل الله، وابتغاء ما عند الله.

إنَّ المال فى نظر الإسلام خير ونعمة، ولكنه خير يُبتلى به الإنسان كما يُبتلى بالشر: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ [التغابن: ١٥]، ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ** ﴾[الفجر: ١٥].

والسعيد من اعتبر نفسه أمينًا على المال ومستخلفًا فيه، فأنفقه حيث أمر الله: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧].

والزكاة تدريب للمسلم على مقاومة فتنة المال وفتنة الدنيا، بإعداد النفس للبذل، امتثالاً لأمر الله وسعيًا فى مرضاته سبحانه.

إنَّ شر ما تصاب به الأمم، ويجعل أعدادها الهائلة كثرة كغثاء السيل، ويغرى بها أعداءها: أن يصاب أبناؤها بالوهن، الذى يخدر الأنفس، ويحطم العزائم، ويقتل الروح المعنوية. وسر هذا الوهن -كما عرَّفنا رسول الله ﷺ- ينحصر فى أمرين: حب الدنيا وكراهية الموت[1].

فإذا تعلم المسلم كيف يدع الدنيا للآخرة، ويبذل المال لله، ويؤخر هوى نفسه لمصلحة غيره أو حاجته، فقد حطم الوهن، وحقق القوة لنفسه، وبالتالى لأمته.

* *

● الزكاة منمية لشخصية الغنى:

ومن معانى التزكية التى تحققها الزكاة: أنها نماء وزيادة لشخصية الغنى وكيانه المعنوى، فالإنسان الذى يسدى الخير، ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه ويده، لينهض بإخوانه فى الدين والإنسانية، وليقوم بحق الله عليه، يشعر بامتداد فى نفسه، وانشراح واتساع فى صدره، ويحس بما يحس به مَن انتصر فى معركة، وهو فعلاً قد انتصر على ضعفه وأثرته وشيطان شحه وهواه.

فهذا هو النمو النفسى والزكاة المعنوية. ولعل هذا ما نفهمه من عبارة الآية: ﴿ **تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ [التوبة: ١٠٣].. فعطف التزكية على التطهير يفيد هذا المعنى الذى ذكرناه، إذ كل كلمة فى القرآن لها معناها ودلالتها.

* *

● الزكاة مجلبة للمحبة:

والزكاة تربط بين الغنى ومجتمعه برباط متين سداه المحبة ولحمته الإخاء والتعاون؛ فإن الناس إذا علموا فى الإنسان رغبته فى نفعهم، وسعيه فى جلب الخير لهم، ودفع الضير عنهم، أحبوه بالطبع، ومالت نفوسهم إليه لا محالة، على ما جاء

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٢٢٤٥٠) عن ثوبان، وقال محققوه: إسناده حسن، وأبو داود فى الملاحم (٤٢٩٧)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٨٣).

فى الأثر: «جُبلت القلوب على حب مَن أحسن إليها وبغض مَن أساء إليها»(١). فالفقراء إذا علموا أن الرجل الغنى يصرف إليهم طائفة من ماله، وأنه كلما كان ماله أكثر كان الذى يصرف إليهم من ذلك المال أكثر أمدوه بالدعاء والهمة. وللقلوب آثار، وللأرواح حرارة، فصارت تلك الدعوات سبباً لبقاء ذلك الإنسان فى الخير والخصب. كما قال الرازى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [الرعد: ١٧]. وبقوله ﷺ «حصنوا أموالكم بالزكاة»(٢).

* *

● الزكاة تطهير للمال:

والزكاة -كما هى طهارة للنفس وتزكية لها- هى تطهير لمال الغنى وتنمية. هى طهارة للمال؛ فإنَّ تعلق حق الغير بالمال يجعله ملوثًا لا يطهر إلا بإخراجه منه. وفى مثل هذا المعنى يقول السَلف: «الحجر المغصوب فى الدار رهن بخرابها». وكذلك الدرهم الذى استحقه الفقير فى المال رهن بتلويثه كله. ولهذا يقول ﷺ: «إذا أديتَ زكاة مالك فقد أذهبتَ عنك شره»(٣).

وأكثر من ذلك ما روى عنه ﷺ: «حصنوا أموالكم بالزكاة»(٤).

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب (٦/ ٤٨١) عن عبد الله بن مسعود موقوفًا، وقال: هذا هو المحفوظ موقوف، ثم روى المرفوع بعده وقال: لم أكتبه مرفوعًا إلا من هذا الشيخ، ولا أدرى يرفع هذا الحديث إلا من هذا الوجه هو معروف عن الأعمش موقوفًا، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ١٢١)، والقضاعى فى مسند الشهاب (١/ ٣٥٠)، وابن عدى فى الكامل (٢/ ٢٨٦)، قال السخاوى: هو باطل مرفوعًا وموقوفًا (التيسير: ١/ ٤٨٥).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط (٢/ ٢٧٤) عن عبد الله بن مسعود، والكبير (١٠/ ١٢٨)، والبيهقى فى الكبرى كتاب الجنائز (٣/ ٣٨٢)، وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ١٠٤)، ورواه أبو داود فى المراسيل (١٠٥) عن الحسن، وروى عن جماعة من الصحابة متصلاً، من وجوه ضعيفة، قال المنذرى: والمرسل أشبه (الترغيب والترهيب: ١/ ٣٠١).

(٣) سبق تخريجه ص ١٦٣.

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير (١٠/ ١٢٨) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣/ ٢٨٢) والبيهقى فى الكبرى كتاب الجنائز (٣/ ٣٨٢) وقال هذا من مراسيل الحسن البصرى. وقال الهيثمى (٣/ ٢٠٠) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه موسى بن عمير الكوفى هو متروك. وضعفه الشيخ الألبانى فى الضعيفة (٣٤٩٢).

وما أحوج الأغنياء إلى هذا التحصين، وخاصة فى عصرنا الذى عرف المبادئ الهدَّامة والثورات الحمر.

إنَّ تعلق حق الضعيف والفقير بمال الغنى تعلق قوى، حتى إنَّ بعض الفقهاء ذهبوا إلى أن الزكاة تتعلق بعَيْن المال لا بذمة الغنى، وأن عَيْن المال مهدد بالهلاك أو النقص ما لم يخرج حق الزكاة منه. وفى هذا جاء حديث نبوى: «ما خالطت الصدقة مالاً قط إلا أهلكته»(١).

وجاء فى بعض الروايات: «يكون قد وجب عليك فى مالك صدقة فلا تخرجها فيُهلك الحرام الحلال»(٢).

بل إن مال الأمة كلها ليُهَدد بالنقص، وعروض الآفات السماوية التى تضر بالإنتاج العام، وتهبط بالدخل القومى. وما ذلك إلا أثر من سخط الله تعالى ونقمته على قوم لم يتكافلوا ولم يتعاونوا ولم يحمل قويهم ضعيفهم. وفى الحديث: «ما منع قوم الزكاة إلا مُنعوا المطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا»(٣).

إنَّ تطهير مال الفرد والجماعة من أسباب النقص والمحق لا يكون إلا بأداء حق الله وحق الفقير: الزكاة.

* *

● الزكاة لا تطهر المال الحرام:

وإذا قلنا: إنَّ الزكاة مطهرة للمال وسبب لنمائه وبركته، فإنما نعنى بذلك المال الحلال، الذى وصل إلى يد حائزه من طريق مشروع. أما المال الخبيث الذى جاء عن طريق النهب أو الاختلاس أو الرشوة أو استغلال النفوذ أو الربا أو القمار، أو أى نوع من أنواع أكل أموال الناس بالباطل، فإن الزكاة لا تؤثر فيه ولا تطهره ولا تباركه، وما أبلغ ما قاله بعض الحكماء: مثل الذى يطهر المال الحرام بالصدقة كمثل الذى يغسل القاذورات بالبول!

---

(١) سبق تخريجه ص ٩٤.

(٢) سبق تخريجه ص ٨٣٤.

(٣) سبق تخريجه ص٩٤.

وربما يظن كثير من اللصوص الصغار أو الكبار، المعروفين باسم اللصوصية أو المختفين تحت أسماء مزورة كاذبة – أن بحسبهم أن يتصدقوا ببعض ما كسبوا من سحت، وما جمعوا من مال حرام، فإذا هم عند الله مقبولون. وإذا هم عند الناس برآء أطهار!!

وهو وهم كاذب يرفضه الإسلام رفضًا حاسمًا. ويقول نبى الإسلام فى ذلك: «إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»(١)، «مَن جمع مالاً من حرام ثم تصدّق به لم يكن له فيه أجر. وكان إصره عليه»(٢)، «لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة غير طهور»(٣)... الغلول: الخيانة فى الغنيمة.

لا يقبل الله صدقة من مثل هذا المال الملوث، كما لا يقبل الصلاة بغير طهارة، ويقول: «والذى نفسى بيده لا يكسب عبد مالاً حرامًا، فيتصدق به فيُقبل منه، ولا ينفق منه فيُبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إنَ الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن. إنَّ الخبيث لا يمحو الخبيث»(٤).

قال القرطبى: وإنما لا يقبل الله الصدقة بالحرام؛ لأنه غير مملوك للمتصدق وهو ممنوع من التصرف فيه، والمتصدق به متصرف فيه، فلو قبل منه لزم أن يكون الشىء مأموراً منهيًّا من وجه واحد، وهو محال(٥).

---

(١) رواه مسلم فى الزكاة (١٠١٥) عن أبى هريرة، والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٨٩).

(٢) رواه ابن خزيمة فى صحيحه كتاب الزكاة (٤/ ١١٠) عن أبى هريرة، وابن حبان فى صحيحه كتاب الزكاة (٨/ ١١)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، والحاكم فى المستدرك كتاب الزكاة (١/ ٥٤٨) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقى فى الكبرى (٤/ ٨٤)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٧٥٢).

(٣) سبق تخريجه ص ١٥٠.

(٤) رواه أحمد فى المسند (٣٦٧٢) عن ابن مسعود وقال محققوه: إسناده ضعيف لضعف الصباح بن محمد، وقال الهيثمى: راه أحمد ورجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات (مجمع الزوائد: ١/ ٢١٣)، والبزار فى المسند (٥/ ٣٩٢)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ٣٩٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ٦٦).

(٥) فتح البارى: ٣/ ١٨٠.

بل قال بعض علماء الحنفية: لو دفع رجل إلى فقير شيئًا من المال الحرام، يرجو به الثواب، يكفر بذلك، ولو علم بذلك الفقير فدعا له يكفر أيضًا، ولو سمعه آخر فأمنَّ على دعائه -مع علمه بالحال- يكفر كذلك. ومثله لو بنى مسجداً من الحرام يرجو به القُربة؛ لأنه يطلب الثواب فيما فيه العقاب، ولا يكون ذلك إلا باستحلال الحرام وهو كفر. وهذا كله فى الحرام المقطوع بحرمته، لا المشتبه فيه[1].

فلا يحسبن واهم أن الزكاة كفَّارة للغاصب عن إثم غصبه، وللمرتشى عن جريمة رشوته. وللمرابى عن نجاسة رباه. هيهات هيهات لما زعموا؛ فإن المال الحرام لا تُقبل منه زكاة، بل لا تجب فيه زكاة. إنَّ الزكاة لا تجب إلا فى مال يملكه صاحبه، والإسلام لا يقر المِلْكية الحرام وإن طال عليها الأمد. إنه لا يقول للغاصبين والمرتشين واللصوص الصغار أو الكبار: تصدَّقوا.. ولكن يقول لهم قبل كل شيء: ردوا الأموال التى فى أيديكم إلى أصحابها![2].

* *

● الزكاة نماء للمال:

والزكاة بعد ذلك نماء للمال وبركة فيه، وربما استغرب ذلك بعض الناس فالزكاة فى الظاهر نقص من المال بإخراج بعضه فكيف تكون نماء وزيادة؟!

ولكن العارفين يعلمون أن هذا النقص الظاهرى وراءه زيادة حقيقية: زيادة فى مال المجموع وزيادة فى مال الغنى نفسه؛ فإن هذا الجزء القليل الذى يدفعه يعود عليه أضعافه من حيث يدرى أو لا يدرى.

وقريب من هذا ما نراه فى بعض الدول المتخمة تتبرع بأموال من عندها لبعض الدول الفقيرة -لا لله- ولكن لتخلق قوة شرائية لمنتجاتها.

---

(١) انظر: حاشية رد المحتار على الدر المختار: ٢/ ٢٧.

(٢) راجع «المال الحرام لا زكاة فيه» فى الفصل الأول من الباب الثانى من هذا الكتاب.

وإذا نظرنا نظرة نفسية نرى أن الدينار فى يد رجل تخفق له القلوب بالحب وتهتف له الألسنة بالدعاء، وتحوطه بالحماية والرعاية - الدينار مع هذا الإنسان أشد قدرة وأكثر حركة من بضعة دنانير مع غيره. ولعل هذا التفسير الاقتصادى للنماء هو بعض ما تشير إليه آيات القرآن: ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [سبأ: ٣٩]. ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. ﴿ **وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** ﴾ [الروم: ٣٩]. ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ولا تنس هنا العناية الإلهية فى هذا الإخلاف والإرباء، بغير ما نعرف من الأسباب، والله يؤتى من فضله ما يشاء لمن يشاء: ﴿ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ثم إن الجزء الذى يؤخذ كل حَوْل، زكاة من مال المسلم، يكون حافزًا له على تثمير ماله وتنمية ثروته، إما بنفسه أو بمشاركة غيره حتى لا تأكلها الزكاة. وهذا التثمير يعود على رب المال -وفقًا لسُنَّة الله- أضعاف ما أُخِذَ منه.

* * *

المبحث الثانى

هدف الزكاة وأثرها فى الآخذ

والزكاة بالنظر لآخذها، تحرير للإنسان مما يذل كرامة الإنسان، ومؤازرة عملية ونفسية له فى معركته الدائرة مع أحداث الحياة، وتقلبات الزمان، فمَن الذى يأخذ الزكاة ويستفيد منها من الأفراد؟

إنه الفقير الذى أتعبه الفقر؟

أو المسكين الذى أرهقته المسكنة؟

أو الرقيق الذى أذله الرق!

أو الغارم الذى أضناه الدَيْن!

أو ابن السبيل الذى أيأسه الانقطاع عن الأهل والمال!

* *

● **الزكاة تحرير لآخذها من ذل الحاجة:**

إن الإسلام يريد للناس أن يحيوا حياة طيبة، ينعمون فيها بالعيش الرغد، ويغتنمون بركات السموات والأرض، ويأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويحسون فيها بالسعادة تغمر جوانحهم، وبالأمن يعمر قلوبهم، والشعور بنعمة الله يملأ عليهم أنفسهم وحياتهم.

إنه يجعل تحقيق المطالب المادية عنصراً هامًّا فى تحقيق السعادة للإنسان.

يقول الرسول ﷺ: «ثلاث من السعادة: المرأة تراها فتعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتُلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق»(١)، وفى حديث آخر: «أربع من السعادة: المرأة

(١) رواه الحاكم فى المستدرك كتاب النكاح (٢ / ١٧٥) عن سعد، وقال: حديث صحيح الإسناد من خالد بن=

الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»[1].

وهى لفتة نبوية رائعة إلى أثر الحياة الزوجية وأثر المواصلات والمسكن والجيران فى سعادة الإنسان أو شقائه، وهو ما صدَّقته الحياة أعظم تصديق.

أجل.. يحب الإسلام للناس أن يسعدوا بالغنى، ويكره لهم أن يشقوا بالفقر، وتشتد كراهيته وعدواته للفقر إذا كان ناشئًا عن سوء التوزيع وتظالم المجتمع، وبغى بعضه على بعض.

وفرق ما بين نظام الإسلام والأنظمة المادية، أن الأنظمة المادية تقف عند إشباع البطن والفَرْج، ولا تتجاوز دائرة المنافع المادية الدنيا، فالرفاهية والسعة هى هدفها الأخير، وجنة أحلامها على الأرض، ولا جنة غيرها.

أما النظام الإسلامى فيجعل هدفه من وراء الغنى ورغد العيش أن يسمو الناس بأرواحهم إلى ربهم، وألا يشغلهم الهم فى طلب الرغيف، والانشغال بمعركة الخبز، عن معرفة الله وحُسْن الصلة به، والتطلع إلى حياة أخرى هى خير وأبقى.

إنَّ الناس إذا توافرت لهم كفايتهم وكفاية مَن يعولونه استطاعوا أن يطمئنوا فى حياتهم ويتجهوا بالعبادة الخاشعة إلى ربهم، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وليس أدل على كراهية الإسلام للفقر وحبه للغنى وللحياة الطيبة من أن الله تعالى امتنَّ على رسوله بالغنى فقال: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ**﴾ [الضحى: ٨].. وامتنَّ على المسلمين بعد الهجرة فقال: ﴿**فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٦]..

= عبد الله الواسطى إلى رسول الله، تفرد به محمد بن بكير عن خالد، إن كان حفظه فإنه صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبى فى التلخيص. محمد، قال أبو حاتم: صدوق يغلط، وقال يعقوب بن شيبة: ثقة، والبزار فى المسند (٤/ ٢٠)، والطبرانى فى الكبير (١/ ١٤٦)، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٠٤٧).

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه كتاب النكاح (٩/ ٣٤٠) عن سعد، والبيهقى فى الشعب (٧/ ٨٢)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٨٧).

وكان من دعاء الرسول ﷺ: «اللَّهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»[1]، ومن توجيهاته تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر[2].

وقد جعل القرآن الغنى والحياة الطيبة من مثوبة الله العاجلة للمؤمنين الصالحين، كما جعل الفقر وضنك المعيشة من عاجل عقوبته للكفرة والفاسقين.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ومنذ أهبط آدم وزوجه إلى الأرض أنبأهما بسُنَّته في خلقه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]..

ومن هذا يتبين لنا أن الأفكار التي نشأت في رحاب التصوف من تمجيد الفقر والترحيب به وإطلاق ذم الغنى والتخويف منه، إنما هي أفكار قذفت بها المانوية الفارسية، والصوفية الهندية، والرهبانية المسيحية. فهي على كل حال أفكار دخيلة على الإسلام[3].

ومن هنا فرض الله الزكاة وجعلها من دعائم دين الإسلام، تؤخذ من الأغنياء لتُرَد على الفقراء، فيقضي بها الفقير حاجاته المادية، كالمأكل والمشرب والملبس

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٢١) عن عبد الله بن مسعود، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٢).

(٢) كما يظهر من حديث: «ذهب أهل الدثور بالأجور» وهو في الصحيحين.

(٣) انظر: كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام»، فصل: نظرة الإسلام إلى الفقر.

والمسكن، وحاجاته النفسية الحيوية، كالزواج الذى قرر العلماء أنه من تمام كفايته، وحاجاته المعنوية الفكرية، ككتب العلم لمن كان من أهله.

وبهذا يستطيع هذا الفقير أن يشارك فى الحياة، ويقوم بواجبه فى طاعة الله. وبهذا يشعر أنه عضو حى فى جسم المجتمع، وأنه ليس شيئًا ضائعًا ولا كمًّا مهملاً، وإنما هو فى مجتمع إنسانى كريم يعنى به ويرعاه ويأخذ بيده، ويقدم له يد المساعدة، فى صورة كريمة لا مَنَّ فيها ولا أذى، لأنه إنما يأخذ حقه المعلوم، ونصيبه المقسوم.

حتى لو اضطربت الأمور فى المجتمع المسلم، وقُدِّر للأفراد أن يكونوا هم الموزعين للزكاة بأنفسهم، فإن القرآن يحذرهم من إهانة الفقير، أو جرح إحساسه بما يُفهم منه الاستعلاء عليه، أو الامتنان، أو أى معنى يؤذى كرامته كإنسان، وينال من عزته كمسلم. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا**﴾ [البقرة: ٢٦٤]..

إنَّ شعور الفقير أنه ليس ضائعًا فى المجتمع وأن مجتمعه يهتم به ويرعاه، كسب كبير لشخصيته، وزكاة لنفسيته، وهذا الشعور نفسه ثروة لا يُستهان بها للأمة كلها.

إنَّ رسالة الإنسان على الأرض، وكرامته على الله سبحانه، تقتضيان ألا يُترك للفقر الذى ينسيه نفسه وربه، ويذهله عن دينه ودنياه، ويعزله عن أمته ورسالته، ويشغل عن ذلك كله بالتفكير فى سد الجوعة وستر العورة، والحصول على المأوى، ويوضح الشهيد «سيد قطب» هذا المعنى بقلمه البليغ فيقول[1]:

«يكره الإسلام الفقر والحاجة للناس، لأنه يريد أن يعفيهم من ضرورات الحياة المادية، ليفرغوا لما هو أعظم؛ ولما هو أليق بالإنسانية وبالكرامة التى خص الله بها

(١) العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص ١٣٢، ١٣٣ – طبعة خامسة.

بنى آدم: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

«ولقد كرَّمهم فعلاً بالعقل والعاطفة وبالأشواق الروحية إلى ما هو أعلى من ضرورات الجسد؛ فإذا لم يتوافر لهم من ضرورات الحياة ما يتيح لهم فسحة من الوقت والجهد لهذه الأشواق الروحية، ولهذه المجالات الفكرية، فقد سُلبوا ذلك التكريم؛ وارتُكسوا إلى مرتبة الحيوان، لا بل إن الحيوان ليجد طعامه وشرابه غالبًا، وإن بعض الحيوان ليختال ويقفز ويمرح، وإن بعض الطير ليغرد ويسقسق فرحًا بالحياة بعد أن ينال كفايته من الطعام والشراب.

«فما هو بإنسان وما هو بكريم على الله، ذلك الذى تشغله ضرورات الطعام والشراب عن التطلع إلى مثل ما يناله الطير والحيون، فضلاً على ما يجب للإنسان الذى كرمه الله، فإذا قضى وقته وجهده ثم لم ينل كفايته، فتلك هى الطامة التى تهبط به دركات عما أراد به الله، والتى تصم الجماعة التى يعيش فيها، بأنها جماعة هابطة لا تستحق تكريم الله، لأنها تخالف عن إرادة الله.

«إن الإنسان خليفة الله فى أرضه: قد استخلفه عليها لينمى الحياة فيها، ويرقيها؛ ثم ليجعلها ناضرة بهيجة؛ ثم ليستمتع بجمالها ونضرتها؛ ثم ليشكر الله على أنعمه التى آتاه. والإنسان لن يبلغ من هذا كله شيئًا، إذا كانت حياته تنقضى فى سبيل اللقمة ولو كانت كافية، فكيف إذا قضى الحياة فلم يجد الكفاية؟».

* *

● الزكاة تطهير من الحسد والبغضاء:

والزكاة -لآخذها أيضًا- تطهير من داء الحسد والكراهية، فالإنسان إذا عضَّته أنياب الفقر، ودهته داهية الحاجة، ورأى حوله مَن ينعمون بالخير، ويعيشون فى الرغد، ولا يمدون له يدًا بالعون، بل يتركونه لمخالب الفقر وأنيابه.. هذا الإنسان

لا يسلم قلبه من البغضاء، والضغينة على مجتمع يهمله، ولا يعنى بأمره، وتربة الشح والأنانية لا تنبت إلا الحقد والحسد لكل ذى نعمة.

والإسلام يقيم العلائق بين الناس على أساس من الأخوة الجامعة بينهم، وأصل هذه الإخوة: هو الإنسانية المشتركة والعقيدة المشتركة: «كونوا عباد الله إخوانًا»(١)، «المسلم أخو المسلم»(٢)، ولن تقوم هذه الأخوة وتستقر إذا شبع أحد الإخوة وترك الآخرين يجوعون وهو ينظر إليهم فلا يمد لهم يدًا بمعونة.

إن هذا معناه تقطيع الأواصر بين الإخوة وإيقاد نار الكراهية والحسد فى صدر الفقير المحروم ضد الغنى الواجد، وهذا ما يقف الإسلام دونه، ويحول دون وقوعه.

فإن الحسد والبغضاء داء فتّاك وآفة قاتلة، وخسارة مدمرة للفرد والمجتمع.

الحسد خسارة على الدين؛ لأنه ينحرف بتفكير الحاسد، فيسىء الفهم فى قسمة الله لأرزاق عباده، وقد يحمل القدر وزر التظالم الاجتماعى الواقع بين الناس، ولهذا قال القرآن فى وصف اليهود: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٥٤].

والحسد والبغضاء والأحقاد آفات تنخر فى كيان الفرد الروحى والجسمى، وفى كيان الجماعة المادى والمعنوى، فالفرد الذى يغزو قلبه الحسد، وتحتله الضغينة والكراهية، لن يكون إنسانًا كامل الإيمان، لأن القلب لا يتسع لإيمان بالله وحقد على عباد الله.

والحسد والكراهية داء جثمانى كما هو داء نفسى أيضًا، إنه يؤدى إلى الإصابة بأمراض وبيلة كقرحة المعدة وضغط الدم، والحسد والكراهية يضران بإنتاج المجتمع واقتصاده، فالحاسد الكاره إنسان مصاب بضعف الإنتاج إن لم يكن بعقمه. إنه بدل أن يعمل وينتج، يُفرغ طاقته فى الكراهية والبغضاء والحسد. فلا عجب أن

---

(١) رواه البخارى فى النكاح (٥١٤٣) عن أبى هريرة، ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٦٣).

(٢) سبق تخريجه ص ٥٨٨.

سمى نبى الإسلام هذه الآفات: «داء الأمم» وحذَّر النبى أمته أن تدب إليهم دبيب العقارب والحشرات السامة فقال: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء. والبغضاء هى الحالقة. أما إنى لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»(١).

لم يحارب الإسلام هذه الآفات النفسية الاجتماعية الخطيرة بالوعظ المجرد، والإرشاد النظرى فحسب، ولكنه عمل على اقتلاع أسبابها من الحياة، واستئصال جذورها من المجتمع، فليس يكفى الجائع أو المحروم أو العريان أن تلقى عليه درسًا بليغًا فى خطر الحقد والحسد، وكل لحظة فى حياته التعسة البائسة، وحياة الطاعمين الناعمين المترفين من حوله، تلقنه دروسًا عملية أخرى: كيف يحسد؟ وكيف يحقد؟ وكيف يبغض؟ وكيف يغلى قلبه كراهية وغيظًا ونقمة؟ ومن أجل ذلك فرض الإسلام الزكاة لييسر للعاطل العمل، ويضمن للعاجز العيش، ويقضى عن الغارم الدَيْن، ويحمل ابن السبيل إلى أهله ووطنه، فيشعر الناس أنهم إخوة بعضهم أولياء بعض، وأن مال الآخرين مال لهم عند الضرورة والحاجة، ويحس الفرد أن قوة أخيه قوة له إذا ضعف، وغنى أخيه مدد له إذا أعسر. وفى هذ الجو النقى يمتد ظل الإيمان بما يتبعه من حب وإيثار: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

* * *

(١) رواه أحمد فى المسند (١٤٣٠) عن الزبير، وقال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة مولى الزبير، ومع ذلك جوَّد المنذرى سنده فى الترغيب، والهيثمى فى المجمع، والترمذى فى صفة القيامة الرقائق والورع (٢٥١٠)، والبزار فى المسند (٦/١٩٢)، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٠٣٨).

(٢) رواه البخارى فى الإيمان (١٣) عن أنس، ومسلم فى الإيمان (٤٥)، والترمذى فى صفة القيامة الرقائق والورع (٢٥١٥)، والنسائى فى الإيمان (٥٠١٧)، وابن ماجه فى المقدمة (٦٦).